الفصل التاسع
النفود

وقع نظري لأول مرة على النفود في جوار **شداد أم كر**. ويالـه مـن منظـر! أمواج الصحراء الحمراء تعلو وتهبط بانتظـام وتمتـد إلـى مالانهايـة. والقمـم التـي تـأخذ شـكل الهـلال والمخروطـات المنحرفـة تبـدي تناقضـاً بيـن النـور والظـل. مستويات حمراء داكنة ترتفع حتى الضفاف على الجوانـب تلتهـب تحـت أشـعة الشمس. وبين الجدران في الممرات الحمراء التي يبلغ عمقهـا ٦٠ ــ ١٦٠ قدمـاً وميض من الفضة والخضرة. الشجيرات والأشجار الصغيرة المتناثرة ذات السـيقان البيضاء الحليبية، والأغصان الطرية المتدلية التي تحمـل الغصينـات الريشـية والإبـر الخضراء الرمادية.

حبست أنفاسي مغموراً بالدهشة والإعجاب. وبخطا صامتة تقدمت مهـا[1] إلى أول شجرة ومدت رقبتها النحيلة، وقضمت برفق الغصينات الصغـيرة الصفـراء والإبر الخضراء الجديدة لنبات **الغادة (الطرفاء)** التي توجـد علـى امتـداد الكثبـان الرملية، وهي هبة ونعمة للإنسان والحيـوان. وتتغلغـل جذورهـا فـي عمـق الرمـال الحمراء الكوارتزية الصافية لأنها تزدري أتربة الصحراء الأخرى.

---

(١) اسم الناقة التي يركبها المؤلف.

لقد خبرت مها النفود وتنقلت فوق المنحدرات الشاقة التي أدت ـ كالبحر المتلاطم الأمواج ـ من الحوض إلى القمة وعبر الفجوات العميقة إلى المنحدر التالي. من المستحيل أن يسير المرء في خط مستقيم كما يفعل في الحماد **والحرّة (اللجاة)**. وتابعنا طريقنا عبر لوالب وانحرافات غير متناهية فوق التلال ووسط الوديان. وبين الفينة والأخرى مرّت الطريق في سهل منبسط صغير، ولكنه دائماً يؤدي إلى كثبان كبيرة على جانبها الآخر دائماً حفرة أو فوهة بركان، وهي تَشَكُّلٌ غريب مختلف تماماً عن الكثبان الرملية التي عرفتها في شمال الصحراء الكبرى.

وأحياناً ينخدع المرء بامتداد من الأرض الصلبة، فيحاول الجري عبر ضفة رملية منخفضة، ولكنَّ مها كانت أكثر خبرة بهذه الكثبان الغادرة ولا تسرع أبداً. كانت تلك التموجات الرملية ذات الأطراف المتدرجة خطرة جداً على الرغم ممَّا تبديه من أمن واستقرار، إذ غالباً ما يتبعها انحدار شديد إلى القاع في الجانب الآخر. وكنا نقضي أحياناً أكثر من نصف ساعة لنعبر بين كثيب رملي وآخر. واجهت مجموعتنا الصغيرة من راكبي الجمال صعوبة في البقاء مجتمعة. ولكن ربما كانت الجمال أكثر قدرة منا على البقاء مجتمعة. وقد عهد فارس بي كلية إلى قيادة مها إذ كانت تقضي عدة شهور في كل عام في النفود وعرفت بالغريزة (كما بدا لي) كيف تعرف مسبقاً أماكن الخطر.

ستبقى هذه المسيرة في النفود معي ذكرى لا تنمحي، وخصوصاً بعد ظهر ذلك اليوم عندما رأيت ملامحها الحمراء ترتفع مهددة بالخطر فوق الرمال المنبسطة.

هذا الافتتان خلال الأيام الأولى جعلني أتلهف لقطع كامل الصحراء الحمراء على الرغم من إدراكي بأن مثل هذا العبور سيكون مرهقاً حقاً. من موقعنا على الطرف الغربي للنفود كانت المسافة حوالي ثلاث مئة ميل إلى الطرف الشرقي. وإذا كان باستطاعة جمالنا السير ثلاثة أميال في الساعة في هذه الكثبان ـ وأقل من نصف هذه المسافة عند طيران الغربان ـ فمعنى ذلك أن هذه الجمال

كانت تسير سيراً حسناً. وعندما عبرت عن هذه الرغبة لفارس اعترض بعقلانية بأننا غير مجهزين لمثل هذه الرحلة، وأن عَلَيَّ أن أكتفي بتمديد فارس لمسيرتنا على الطرف الجنوبي الشرقي للنفود. وهي تتوسع هنا لأنها تمدّ رؤوساً عريضة إلى السهل الغربي في الجزيرة العربية، وقد سافرنا أولاً فوق هذه الرؤوس أحياناً بين الكثبان العالية، وأحياناً لمدة يوم كامل عبر النجود المنبسطة. سافرنا حول الجروف الصخرية التي حطمتها العوامل المناخية، وعبر الانهدامات المنخفضة ذات البرك المطرية الجافة حتى وصلنا إلى النفود نفسها ثانية. وهناك وصلنا إلى أقصى نقطة جنوبية في رحلتنا. وحسب رواية فارس أصبحنا على مسيرة يوم واحد من **تيماء** أي أننا أصبحنا على مسافة خمسين ميلاً من تلك الواحة الشهيرة.

واستمرت طريقنا صعوداً ونزولاً كما لو كانت تمر فوق سنامات عشرات الآلاف من الجمال الضخمة الرابضة، حتى إن رواحلنا كانت تبدي بعض العصبية أحياناً؛ مما كان يتوجب علينا قيادتها. وكان علينا أحياناً خلع صنادلنا أو أحذيتنا لنستطيع السير فوق السفوح الشديدة الانحدار، حتى نغرس أقدامنا بقوة، أو نجرف خطواتنا بأكفنا وأقدامنا. ومن حسن الحظ أننا ركبنا ذلالاً معتادة منذ الصغر على النفود. فالجمال التي ألفت العيش في الصحراء الصوَّانية أو المناطق البركانية ترفض بإصرار أن تطأ هذه الرمال الغريبة.

كانت خدود الكثبان مشبعة بأشعة الشمس متوهجة بالحمرة القانية في أواخر النهار. لقد توهجت كما لو أنها اكتست بالحرير الناعم. ترى هل هناك كثبان رملية بكر لم تطأها أرجل البشر ولم تعرف إلا الأقدام الصغيرة البريئة للغزلان الرشيقة؟

ويبدو شمال غرب النفود في الربيع مليئاً بالصيد، ففي معاقلها يتكاثر النعام الذي يهاجر فيما بعد مع صغاره إلى الشمال كما تتكاثر أيضاً الغزلان والوعول طريدة النمر الشرس. كما أن تيس الجبل أيضاً والنسر من **جبل الطويل القريب** حيث لاتزال هذه الحيوانات موجودة تصل في رحلاتها الربيعية إلى **القفار** الغربي.

ولنعد إلى زحفنا فوق الكثبان بعد ظهر ذلك اليوم إذ لفت انتباهنا من بعيد شيء يتحرك تحت **الطرفاء**. أوقفت راحلتي وركزت منظاري فظهر لي شيء خلاب. مجموعة من غزلان الريم البيض كالثلج، أقدامها مغروسة في الرمال الحمراء، ترعى الأغصان المتدلية في جو حفي أخضر. وبتدقيق النظر رأيت مجموعات أخرى من الغزلان بالقرب منها: بعض الغزلان يغالبها النعاس وبعضها يشم بعضاً أو تتناطح بقرونها ورؤوسها. مناحي أيضاً كان ينظر فأخرج بندقيته من خرجه، ولكني رجوته ألا يطلق النار وأن يدع هذه الحيوانات الجميلة **بسلام** فتقبل وجهة نظري. أشار إلى فارس وإلى الآخرين فساروا في غور بين الكثبان بينما تخلفت أستمتع بمنظر هذه المخلوقات الفاتنة. إنها تروي عطشها بالندى الذي يتجمع في الصباح على الأوراق والأزهار كما يقول البدوي.

وقُدّر لي أن أنال مكافأة في تلك الساعة من المراقبة والتأمل الصامت، إذ لابد أن بعض الحركة أو الضجة المريبة نبّهت الغزلات لأنها انتصبت كلها واقفة في عدة مجموعات بيضاء في الرمل الأحمر منتصبة الآذان وكلها تحدق باتجاه الغرب. وفجأة ظهر فوق السفح مجموعة من إحدى عشرة نعامة بخطى طويلة بطيئة ـ ثلاثة ذكور وثماني إناث ـ إنها طيور رائعة. وتسلل خلفها غزال فضولي، لكن النعامات بدأت بالعدو واختفت في متاهات الكثبان الرملية.

وعندما سرت في إثر رفاقي قطع طريقي أحد الثعالب، وطارت غربان كثيرة من بين شجيرات الأكاسيا. كانت الشمس تشرف على المغيب، والهواء الجاف يميل نحو البرودة، وأمامي الأمواج الرملية بقممها الذهبية الحمر تلقي ظلالاً داكنة نحو الشرق. وستر وجه البريّة حجاب بنفسجي، وخيم على النفود سكون عجيب. غسق قصير ثم يأتي الليل، والريح تحمل إلي صوتاً خافتاً، إنه فارس يبحث عني. فأجبت النداء وركبنا جنباً إلى جنب إلى أخدود آمن محاط بالكثبان العالية جعلت منه **مراحة جمال ممتازة** ومخيماً مثالياً.

قال فارس: «دعونا نتناول طعامنا» وسحب شداد الثقيل وقربة الماء عن ظهر ذلوله. وسرعان ما أشعلت النار من أغصان الطرفاء. وخلال ثوان قليلة أصبحت دافئة، واشتعلت بدون دخان وبلهب لا لون له تقريباً، وغذّاها الرجال

بالجذور والأغصان بحجم الذراع. في هذه الأثناء جهّز العجين. وعندما أصبحت هناك كومة من الجمر المتوهج أحضرت صفيحة الخبز المعدنية ووضعتها على النار. وكان طعم هذا الخبز الساخن رائعاً مع التمر والعسل وجبن الجمال الصلب.

وضع فارس الحراس فوق هضبتين رمليتين مشرفتين، وكان عَليَّ أن أتولى إحدى نوبات الحراسة. ولفّت الصحراء ليلة صافية، وعكست كثبان الرمال والهواء ضوء النجوم بلون بنفسجي ذي بريق فضي. كانت ليلة تسحر الألباب.

ولكن أعظم أعجوبة هو ذلك السكون التام الذي سحرني، فسكرت من جمال الأضواء الليلية الخافتة، وعظمة السماء التي تنعكس في هذه المرآة الرملية الفريدة. وجلست لعدة ساعات وحيداً يغمرني هذا السحر العجيب.

* * *